



تناظر المحكي وتحولات الخطاب

في صور ومواقف من حياة سلمان الفارسي*
للدكتور مأمون جرار

الحكاية (التي هي الأحداث قبل الكتابة) في قصة إسلام سلمان الفارسي الذي كان دينه المجوسية، تبدأ حين أرسله والده ذات يوم إلى أرض له يتفقدّها، فمر سلمان وهو في طريقه بقوم من النصاري يصلون بترتيل منغم، فوقع ذلك في أذنه وقلبه موقعاً حسناً، فعزم على الرحيل إلى الشام ليتعلم من رهبانها حقيقة هذا الدين، وألحقه الرهبان بركب من التجار كانت وجهتهم الشام، فلما وصلها التحق بأسقف الكنيسة يتعلم منه، ويصغي إلى مواعظه، لكن الأسقف لم يكن في صورة النقاء التي طمح إليها سلمان، فلما مات، أقبل سلمان على الأسقف الجديد الذي كان ورعاً زاهداً في الدنيا راغباً في الآخرة، وجاءت منية الأسقف فاستوصاه سلمان، فأشار عليه باللاحاق برجل في الموصل يثق في دينه، ثم يتحول إلى نصيبين بعد موت الأسقف السابق، ثم رحل إلى عمورية، وكانت الرحلة بعد ذلك إلى أرض العرب بناء على وصية راهب عمورية، الذي كان يرى قرب خروج خاتم الأنبياء فيها، وزوده بعلامات يتعرف بها إليه، وحين وصل الركب إلى وادي القرى، قيده الرجال بالجبال وباعوه إلى رجل من اليهود، ثم مضى سلمان إلى المدينة بعد أن ابتاعه رجل آخر من اليهود، وفيها تنامى إلى علمه بمقدم رسول الله ﷺ إليها، فبادر إلى مجلسه ليتعرف على علامات النبوة التي لقنها من أسقف عمورية، ثم أسلم سلمان، بعد أن اعتق من رق اليهودي بمكاتبة أمر بها رسول الله ﷺ: "أعينوا أخاكم" (١).



د. مصطفى عليان - الأردن

والده: "أي بني، ليس في ذلك الدين خير، دينك ودين آبائك خير منه".

ثم ما لبث هذ الصراع الذي بدأ تحيزه بالمكان (القرية) أن تحول إلى غربة ذات أبعاد نفسية حين "أحس أنه غريب في دياره، أبوه وأمه وإخوانه، لم يعودوا في عينيه كما كانوا من قبل، أحس بأن كل الصلات التي كانت تربطه بهم قد انقطعت، وأن أهله وإخوته، هم أولئك الذين التقى بهم في الكنيسة".

وتأتي الشام مكاناً تستقر النفس فيه من هذا العناء، ويتنفس فيه صراعاها الفكري، بعد أن صارت النصرانية حقيقة شغفت قلب سلمان، فرغب في لقاء كبار الرهبان فيها، ليقف على الحق "أنه يريد الله" (٤).

ثم كانت الموصل المحطة الثالثة بعد الشام، وكانت نصيبين المحطة الرابعة في رحلة سلمان، لكن المحطة الخامسة حملت تحولاً في الاتجاه والرؤية عمل على كسر نمطية التابع في الأمكنة السابقة (الشام، الموصل، نصيبين)، فقد كان الانتقال والارتحال جارياً في حدود جغرافية من أرض الشام والعراق وبلاد الروم شمالاً وغرباً، فإذا به ينعطف نحو الجنوب الذي يختلف اختلافاً حاداً، إذ كان سلمان يرى

أنه كلما مضى جنوباً قلت الخضرة، وزادت الرمال... صحارى وجبال مقفرة... إلا واحات متناثرة... هنا وهناك" (٥).

وكان التبدل في الرؤية حاداً أيضاً في وصية راهب عمورية لسلمان "والله يا بني لا أعلم أحداً بقي على ما كنا عليه من الحق آمرك بصحبته، وقد قرأنا في كتبنا بشارة المسيح عليه السلام بخاتم الأنبياء، وما

هذه حكاية مختصرة لما فصل فيه الدكتور مأمون جرار، إذ امتدت القصة (القص: النص المكتوب بمضمونه ونظامه الفني) لتغطي ستاً وعشرين صفحة (٦)، تعددت فيها الأصوات وتتنوع فيها الأماكن، وتنامى فيها السرد وامتد فيها الزمن.

وقصة سلمان الفارسي هذه، على الرغم، من أنها من قصص الدخول في الإسلام موضوعياً، تنتمي إلى قصص السفر والرحلة فنياً، الذي يتكون من وحدات سردية يمكن أن يستقل بعضها عن بعض، غير أن تعاقبها في نص واحد، ينشئ وحدة جديدة لها بنية مخصوصة، تضطلع بالبطولة فيها شخصية رئيسة"، وهذا اللون من السرد المركب الذي تتابع فيه القصص، هو ما يسميه شكلوفسكي بالنظم (٧).

◀ المكان:

انتظم مسار الحدث في قصة سلمان عدداً من الأماكن التي شكل في كل منها محطة في السرد ذات بناء وتحولات ومفاجآت، فالمكان الأول الذي بدأت فيه القصة، قرية زراعية في بلاد فارس، جاء ذلك غير صريح في قول الراوي: (د. مأمون جرار): "كان والده شيخ قريته، عارفاً بالزراعة، مقدماً بين أهله".

عمل المكان في هذه المحطة على بلورة الحبكة في إسلام سلمان، على أساس من الصراع الذي بدأ شكلياً مقارناً بين المجوسية والنصرانية إذ "وجد سلمان أمراً غير الذي ألفه من العبادة، وجد ملابس نظيفة، وأصواتاً وقعت في أذنيه وقلبه موقعاً حسناً" مما دفعه إلى القول بسذاجة: "كلا والله يا أبت، بل إنه لخير من ديننا" دفعاً لقول



د. مأمون جرار



ما لبثت هذه الثنائية أن انخرطت في التضاد بين الحق والباطل، الذي يصل خيطاً رابطاً بين هذه المحطات المكاتب المتعددة الملامح الحسية والجغرافية والنفسية، إذ صار البحث من الحق الذي جرى ترديده على لسان سلمان مرتكزاً ضوئياً في علة الحركة السردية وسببيتها، إذ نسمعه يقول: "لقد هجر أهله ودياره طلباً للحق" وما زال الشوق إلى الحقيقة ينمو في قلب سلمان" وقد أدرك الموت راهب الموصل، "ويذرف سلمان دموع الحزن على فراق رجل آخر من رجال الخير في زمن صار أهل الحق فيه معدودين" وهكذا كان صوته الداخلي يقول أيضاً حين جاء راهب عمورية أجله "لقد كانت رحلتي في البحث عن الحق طويلة".

◀ الزمان:

وجاء الزمان في قصة سلمان الفارسي غير متجاوز زمن القص تاريخياً في إخضاع السرد للتتابع المنطقي بالعلية والسببية، وهو بذلك يعطي في توأمته للمكان في القصة بعداً تعزيبياً في بناء حبكة القصة من حيث هي "نظام يشد أجزاء الحدث ويتولى تركيبها وترتيبها في بناء متكامل، ولهذا ترتبط الحبكة بالزمن، لأن أهمية الحدث الفنية ليست بمضمونه، بل بموقعه، أي بتوقيت ذكره"^(٩).

وكان حضور الزمان في المكان ظاهراً في هذه القصة على المستويين الزمن التقليدي والزمن النفسي، الذي "يجسد الإحساس بالزمن ومروره"^(١٠)، كقول سلمان: "لقد كانت رحلتي في البحث عن الحق طويلة، تنقلت بين البلاد وصحبت صالحى هذا الزمان"، أو قول الراوي: "وكان وصول سلمان أرض العرب قبيل بعثة

أرى إلا أنه اقترب زمانه، وهو مبعوث بدين ابراهيم، يخرج في أرض العرب، وأنا أعطيك من العلامات ما تعرفه به..."

وفي وادي القرى قرب المدينة جاء تعاقب المكان السادس في نسق الأمكنة السابقة، غير أن فيه فريدة وانقلاباً في مسار الشخصية، إذ يغدو سلمان في هذا المكان عبداً مملوكاً لسيده اليهودي، بعد أن كان عابداً مقيداً في رحاب عبادة الله.

ثم كانت المدينة آخر المحطات التي أدرك فيها الحق المفقود الذي ظل يطلبه، وكلما اقترب منه افتقده وصار ضبابياً، إذ فيها انكشفت له علامات النبوة التي حفظها من وصاة راهب عمورية.

وإذا كان الوصف الذي هو أداة تشكيل صورة المكان^(٦)، غائب بوظائفه المختلفة، الجمالية التزيينية والتوضيحية التفسيرية والايقاعية، التي يشكل بها استراحة وسط الأحداث لتحاشي الجمود والرتابة بخلق حركة خاصة تقطع تسلسل الحدث في موضع حساس يولد تراخياً بعد توتر، أو قلقاً وتشويقاً بعد تراتب^(٧).

فقد أناب عنه الدكتور مأمون وقوفاً عند المكان الداخلي (النفس) الذي جاء استغلاله في السرد بأن منح فاعلية نصية فيه، وذلك حين أسقط عليه الحالة النفسية والفكرية لسلمان، فحاد المكان عن كونه عنصراً تجري فيه الأحداث إلى محاور حقيقي، يقتحم عالم السرد محرراً نفسه هكذا من أغلال الوصف^(٨).

لقد أضى المكان يحمل ثنائية ضدية بدأت بين القرية والكنيسة في ظلال المجوسية والنصرانية، ثم



رسول الله ﷺ، وما هو إلا وقت قصير، حتى بدأت الأخبار تسري بين الناس أن نبياً قد ظهر في مكة.

والزمن في قصة سلمان الفارسي طويل، إذ يقدر بعدد غير قليل من السنوات، وقد عمد السارد إلى اختصارها بالقفز عن حدودها بين محطة مكانية وأخرى بالإحالة على "الوقت" و "السنوات القليلة" "الإقامة القصيرة" و "الحين من الدهر" "وابتدأت رحلة سلمان.. ومضت الأيام.. وسلمان يتعلم في كل يوم جديداً في العلم والعبادة.. ولم يمض وقت طويل حتى جاء الأسقف أجله.. واجتمع مجلس الرهبان لينتخب أسقفاً جديداً.. وأحبه سلمان وتعلم منه، ومضت على ذلك سنوات جاءت ذلك الأسقف منيته.. وألقى سلمان عصا الترحال في نصيبين، وكانت إقامته فيها قصيرة... ومكث سلمان حيناً من الدهر في عمورية".

غير أن هذا الزمن جرى بعد ذلك اختزاله وتكثيفه في إطار الأيام المتلاحقة عند اقتراب الرحلة من محطتها الأخيرة في وادي القرى والمدينة، بما جعل الزمن التقليدي في القص يغلب الزمن النفسي الذي تنامي في المحطات السابقة "وما هو إلا وقت قصير حتى بدأت الأخبار تسري بين الناس أن نبياً قد ظهر في مكة... وكان ذات يوم يعمل في رأس نخلة.. وبعد أيام أخذ سلمان شيئاً من التمر وجاء به إلى رسول الله ﷺ.. ومرت أيام ومات أحد أصحاب رسول الله ﷺ...."

«الحركة السردية»

ولم يقف هذا الاختصار والتكثيف في الزمن دون امتداد حركة السرد وانتظامه في خط افقي مطرد، غير أن التباين بين قسمي الزمن (التقليدي والنفسي) ترك أثراً في حركة السرد من حيث زمن الخطاب أو زمن القراءة ولوازمه التعبيرية من الحوار والايقاع. فزمن الخطاب الذي هو الوقت الذي يستغرقه تمثيل (قراءة) المواقف والأحداث في تعامل زمن

القصة^(١١)، ملحوظ فيه التفاوت في بناء المشاهد، إذ جاء بنا المشهد الأول (خطاب سلمان لوالده في القرية) والمشهد الأخير (خطاب سلمان للنبي ﷺ في المدينة) متميزين في الطول، متلونين بالمشاهد الحوارية الداخلية والخارجية، على بقية المشاهد التي جاء بناؤها موجزاً قصيراً نمطياً في الرؤية والخطاب، إذ المدار فيها على صعبة الراهب والإفادة من علمه والتأسي بعمله، فإذا حضرته الوفاة استوصاه سلمان بمن يصحب من بعده، فيأتي التعيين على راهب الموصل أو عمورية.

غير أن في المشهد الأول (القرية) زاوية من رؤية الخطاب وغايته، إذ إننا في موقف يصارع فيه الدين الطارئ الجديد (النصرانية) دين الآباء التقليدي القديم (المجوسية)، ويكشف الحق فيه زيف الباطل، وتغلب فيه الفطرة النقية تحولات البيئة المادية الحادثة، وقشرية مرتكزها.

والخطاب في المشهد الأخير (المدينة) سردي صامت، تجري المحاورة فيه على أساس من تقابلية بين سؤال مضمر، وجواب حال ظاهر، يؤول فيه الطلب إلى ناتج إيجابي، وذلك في مثل قول سلمان: "وبعد أيام أخذ سلمان شيئاً من التمر، وجاء به إلى رسول الله ﷺ، فدخل عليه وحياه:

-إني رأيتك لا تأكل الصدقة، وهذه هدية أحببت أن أكرمك بها.

فشكره ﷺ، ومد يده وأكل.

وازداد سلمان يقيناً.. فهاهو يأكل الهدية... ولا يأكل الصدقة".

على أن الحوار الذي قام عليه المشهدان السابقان (في القرية/ المدينة) بمستوييه الداخلي (الاستبطاني) والخارجي (مجازبة الكلام)، كان حافزاً على تعزيز موقف الشخصية (سلمان) في البحث والتحري، بما أكسب السرد حركة ذات تبدل في المسار وتغيير في الاتجاه.



يجسدها قولهم: "قاتل الله الأوس والخزرج، والله إنهم لمجتمعون الآن بقاء على رجل قدم عليهم من مكة.. يزعمون أنه نبي".

وغير خاف أن هذا الاختلاف في الرؤى الذي جاء في صور مختلفة من مقاطع الحكى، أبان عن تنوع في السرد وحركته، وكشف عن مفارقات في المواقف وتضادات في التصور، الذي حمله الحوار الظاهر والباطن، وكل ذلك عزز في تلقي القصة تمكيناً للإيقاع الذي جرى تردده بين الائتلاف والاختلاف على مدار السرد.

«السارد ومحاكاة بنية الواقع التاريخي»

تمتلك رحلة سلمان الفارسي بنية سردية واضحة المعالم، وقد رواها ابن عباس مباشرة عن سلمان بقوله: "حدثني سلمان الفارسي قال... (١٢)، وكان حرص ابن عباس ظاهراً في مسابقة الواقع التاريخي للقصة، وذلك بمناقلة الكلام بين الشخصين بالفتنة (قال/ قلت/ قالوا) مع المحافظة على حضور السارد (سلمان) في العرض والوصف.

قال ابن عباس: "حدثني سلمان الفارسي قال: كنت رجلاً فارسياً من أهل أصبهان من أهل قرية يقال لها (جى).. قال: وكانت لأبي ضيعة عظيمة، قال: فشغل في بنيان له يوماً، قال لي: يا بني، إني قد شغلت في بنياني هذا اليوم عن ضيعتي فاذهب فاطلعها، وأمرني فيها ببعض ما يريد، فخرجت أريد ضيعة فمررت بكنيسة من كنائس النصارى فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلون، وكنت لا أدري ما أمر الناس لحبس أبي إياي في بيته، فلما مررت بهم وسمعت أصواتهم دخلت عليهم أنظر ما يصنعون قال: فلما رأيتهم أعجبتني صلاتهم ورغبت في أمرهم، وقلت: هذا والله خير من الذي نحن عليه. فوالله ما تركتهم حتى غربت الشمس وتركت ضيعة أبي، ولم آتها، فقلت لهم: أين أصل هذا الدين؟ قالوا: بالشام" (١٣).

وهذا التنوع في الحوار منح زمن الخطاب تذبذباً في الحركة يستقطع الأحداث، ويعترض تسلسلها، مما جعل إيقاع الزمن منفثاً على قلق الشخصية وتوترها، وهو إيقاع زائد على إيقاع تكرار المشاهد التي حملها نمط رتيب في زمن القص.

وشخصية سلمان الفارسي التي هي بؤرة الاهتمام، قدمها السارد بضمير الغائب في متابعة الحكاية، لم يتلبث عند أبعادها الخارجية، ولم يعبأ بالإشارة إلى أي من دوالها، غير أنه أوماً إيماءً دالاً على خصائص وصفات مميزة له بالفطرة النقية الباحثة عن الحق، والصبر على معاناة الارتحال، ومشاق السفر بمثابة لا ملل فيها ولا ضجر، وذلك كله من خلال استبطان المواقف والمشاهد.

وجرت حركة الشخصية مع الآخر بانفصال واتصال منح حركة السرد تحولات جاء بعضها حاداً، وبعضها دون ذلك، وقد كان ذلك انعكاساً للواقع في رؤيته للحق إيجاباً وسلباً سواء في ذلك أهل الدين الذين رأى منهم "أصنافاً منهم الصادقون ومنهم الكاذبون" أو الناس الذين كان فيهم الضالون والشريرون والأوفياء الصادقون، فمن أهل الدين الصادقين كانت علاقة الاتصال بين سلمان واسقف الشام الثاني وأسقف الموصل ونصيبين وعمورية، ومحمد ﷺ.

وكان الانفصال بين سلمان واسقف الشام الأول الذي كان سلوكه في كنز مال الصدقة دون ما يؤمن به، وكان انفصال سلمان أيضاً عن والده الضال بعبادة النار وتفضيلها على المسيحية، وكان انفصاله وعداؤه أيضاً لأهل القافلة التي اتجهت به نحو بلاد العرب، فخانت العهد إذ فوجئ سلمان وقد وصلت القافلة وادي القرى بالقوم الذين معه يقيدونه بالحبال، ويمضون به إلى رجل من اليهود من أهل الوادي ليبيعوه عبداً". ثم كان انفصاله عن سيده اليهودي وابن عمه الذين كانت رؤيتهم للإسلام



توصيل (حتى)، على الرغم من طول السفر من (جيّ) في أصبهان إلى الشام، دون تفاصيل "يمكن أن تسهم في إلقاء أضواء على سير الحدث، أو مسار الشخصية ومصيرها، وبالتالي تساعد القارئ على استنباط العلاقة بين الشخص وعالمها" (١٤).

ونهض السارد لاستدراك ذلك بالاستبطان وإعمال الخيال بقوله: "وصل سلمان الكنيسة بأمان، وانضم إلى القافلة، لم يكن سلمان يعلم ما الذي يحمله له الغيب.

«إنه يطلب الحق الذي وقع في قلبه»

وما هو يهاجر في سبيله... ينسى الأهل والوطن.. يطوي صفحة عمره كأنها لم تكن، ويفتح صفحة عمر جديد... وشفعة الايمان.

كان سلمان وهو يرى الإبل محملة ببضائع فارس وما وراءها.. ينظر إلى التجار ويهمس في نفسه:

- أتחסون بهذا الدين الذي تعتنونه كما أحس به!
- أتחסون أنكم في نور.. أم أن على أعينكم غشاوة؟
- لا أرى في عيونكم لهفة.. ولا أرى في وجوهكم نورا...
- لا أسمع إلا حديثاً عن التجارة ومكاسبها.. ما أحضرتكم وما أخذتم..
- فأين الدين في حياتكم.

وإذا كان ابن عباس قد حرص على سرد التفاصيل بدقة وإن كثرت وتكررت في المواقف، خاصة المحاورات التي جرت بين سلمان والاساقفة في كل محطة ارتحل إليها، قصداً من ابن عباس إلى أمانة النقل والضبط التي يكون بها الراوية عدلاً في روايته التاريخية، فإن الدكتور مأمون السارد الفني العارف بمقاصد إعادة إنتاج الرحلة وتشكيل السرد فيها وتجديد تناوله، أضفى على تشويق المتلقي وامتناعه تأملاً وإن كان محدوداً، في قدرة سلمان الفارسي على المواجهة وأساليبه في البحث عن الحق، والمعاناة في تحريره والوصول إليه.

فالسارد (د. مأمون) لم يقتصر على رواية الأحداث الخارجية المتلاحقة التي تعهد بنقلها الراوي التاريخي عن السارد الحقيقي (سلمان الفارسي)، بل زاد على ذلك عناية بتطوير المواقف بالمحاورة أو الاستبطان، بل التمس لذلك كله أساليب من محاورة خارجية، واستبطان نفسي، أو إضافة نفذ من خلالها إلى تحريك سكون الحدث أو استمرار نمطيته، من ذلك تناول الدكتور مأمون لحركة الرحلة إلى الشام التي جاءت في الأصل كما يلي: "ثم خرجت معهم (التجار) حتى قدمت الشام"، وهو تكثيف شديد للحدث، وتقطير لمجريات الرحلة بفعلين (خرجت) و(قدمت) وأداة



العارفون الذين سألهم سلمان " عن أعلم أهل البلاد بالنصرانية فدلوه على الأسقف، فهو أوعهم وأعلمهم فيما يرون"، وفيهم من يعرف الحق لكن الدنيا والمال شغلته عن الآخرة فلا تسمع في محاوراتهم " إلا حديثاً عن التجارة ومكاسبها.. ما أحضرتهم، وما أخذتم؟ " فالدين غائب عن حياتهم.

وفي التجار فجار، لا عهد عندهم ولا رعاية فيهم لذمة، فقد عرض سلمان على تجار من قبيلة كلب "أن يأخذوا كل ما يملك ويحملوه معهم، ورأوا في عرض سلمان ما يغريهم، فماذا يكلفهم رحيله معهم... وفوجئ سلمان وقد وصلت القافلة وادي القرى بالقوم الذين معه يقيدونهم بالحبال.. ويمضون به إلى رجل من اليهود من أهل الوادي.. ليبيعوه عبداً".

«اللفة بين محاكاة الواقع ومجاورته»

حرص السارد على حضور الأصل التاريخي في حركته وجانب من لغته، على الرغم من أن فرقاً منهجياً مميزاً بين الخبر والقصة في البنية والرؤية، وهو بذلك يرمي إلى الدلالة على عدد من الأمور، كتحقيق حضور الخطوط الأساسية والمحاور الرئيسة في مسار الحدث التاريخي، حفاظاً على هويته وواقعته، وقدرة الراوية الإسلامي على الإمساك بضوابط السرد العامة في حركة الأحداث بالوصف والمحاورة، ودقة المنجز اللغوي التراثي في استيعاب مطالب النقل للخبر بأساليب ممثلة للأقوال والأفعال والانفعال، بالجملة المكثفة الموجزة في مناقلة الخطاب وأدوات من الربط هي علامات على حركة الزمن توثباً وإبطاءً، فضلاً عن إبانة عن براعة في تجاوز المنتج التاريخي واندغامه بالنتاج الإبداعي في نسيج لغة القص، من ذلك قول ابن عباس عن سلمان: "أي بني، أين كنت، ألم أكن عهدت إليك ما عهدت؟ قال: قلت: يا أبت مررت بأناس يصلون في كنيسة لهم فأعجبني ما رأيت من دينهم،

وكان حضور السارد طاعياً في هذا المجال من نقل صوت الشخصية الداخلي بأناة واستبصار، بل إنه خلع على ذلك طابعاً غنائياً بالتكرار في مشاهد كثيرة، وإلحاح السارد على هذا الاستبطان النفسي في إيقاف حركة السرد، إنما يعزز نجاح القصة في محاورة الواقع ومساءلته، بالإجابة عن أسئلته، لماذا صبا عن المجوسية وتحول إلى النصرانية؟ لماذا كان هذا الانتقال من ملازمة الاساقفة؟ وكيف وصل جزيرة العرب وكيف عرف صدق نبوة محمد ﷺ؟

زد على ذلك أيضاً أن انعطاف السارد إلى هذا اللون من المحاورة، فيه وعي باظهار واقعية أخرى في إظهار صوت الشخصية وهي تعبر عن ذاتها بتلقائية وبساطة تعبيرية مؤثرة.

على أن تصوير العالم الداخلي لسلمان الفارسي فيه تعبير عن رؤية لعدد من قضايا الدين والإنسان، فالنصرانية ذات جاذبية شكلية لافتة، فالكنيسة "بناء لفت نظره بقبته ومنارته" ووجد سلمان في الرهبان "ملابس نظيفة، وأصواتاً وقعت في أذنه وقلبه موقعاً حسناً، شغل.. عما بعثه به أبوه".

ورهبان النصراني فيهم الفاسد المخادع كأسقف الشام "كان رجل سوء، يأمر الناس بالصدقة ويرغبهم فيها، فإذا جاءت الأموال اكتنزها ولم ينفقها في سبيل الله، وحرّم المساكين حقوقهم"، ومنهم من "كان أزهد الناس في الدنيا وأرغبهم في الآخرة، لا يضيع وقتاً من ليل ولا نهار في غير منفعة كأسقف الموصل ونصيبين وأسقف عمورية الذي كان على معرفة بالحق، ودراية بشرع الله وتتابع الأنبياء والمرسلين حتى النبي الخاتم. أما اليهودية فهي التصاق بالمال واستعباد للإنسان واسترقاق له به، وفساد في العقيدة، وحقد على الأديان الآخر".

والتجار على مستويات في الأمانة ومعرفة الحق أو طغيان الدنيا والانحراف إلى المادة، ففيهم الصديقون

فوالله ما زلت عندهم حتى غربت الشمس، قال أبي: أي بني، ليس في ذلك الدين خير، دينك ودين آبائك خير منه، قلت: كلا والله إنه لخير من ديننا، قال: فخافني فجعل في رجلي قيداً، ثم حبسني في بيته" (١٥).

وجاءت هذه المحاورة في تناول السارد كما يلي:
- "أي بني، أين كنت؟

- أولم أعهد إليك أن تذهب إلى الأرض فتفقدوها وتعود سريعاً؟ وكان سلمان من البراءة.. أنه لم يخف عن والده ما شغله في نهاره، ولم يدر عاقبة ذلك.

- يا أبت مررت بأناس يصلون في كنيسة لهم... فأعجبني ما رأيت من دينهم، فوالله ما زلت عندهم حتى غربت الشمس.

وندم والده أن أخرجه من غير رفيق يصحبه، وهما هو الخطر يصيب ولده في أعز شئ عليه، دينه، وقال له:

- أي بني، ليس في ذلك خير، دينك ودين آبائك خير منه. وكان سلمان قد تعلق قلبه بالدين الجديد، فقال لوالده في سذاجة.

- كلا والله يا أبت، بل إنه لخير من ديننا.

- لقد أحس الأب بالفجيعة، فقد كان يظن أن ولده مكين الإيمان بالمجوسية، وأن طول صحبته للنار يزيده إيماناً، وهما من أول مرة يرى ديناً جديداً يهجر دين آبائه وأجداده، ولا يفيد معه الحوار، فقيده رجله... وحبسه في غرفة، حتى لا يستطيع الذهاب إلى الكنيسة" (١٦).

لقد التزم السارد (د. مأمون) بمرجعية الخطاب التاريخي المباشر بين سلمان الفارسي ووالده، فاستدخله في النسق الجديد بخطاب غير مباشر، إذ إنه أجرى فيه تعديلاً مس اللفظ والتركيب، فضلاً عن انعطاف إلى أبنية سياقية في حوار النفس، ويسجل على ذلك ملاحظ ذات تعلق بالامتصاص والتحويل وهي كما يلي:

- استبدلت لفظة (أناس) ب (الناس)، فعلى الرغم

من أن الكلمة الأولى أصل في الثانية فخفف (١٧)، يأتي اختيار (أناس) منسجماً بالالف والأنس الذي يمثل مرجعية سياقية لخطاب سلمان الذي يحمل انفعلاً معجباً بما شاهد في كنيسة النصارى من هيئة الرهبان وتراتيلهم، وهو ما لا تقوم به (الناس) التي تنحصر دلالتها بالحركة وملازماتها المعنوية.

- انزاح عن أسلوب "ألم أكن عهدي إليك ما عهدي؟" إلى أسلوب "أولم أعهد إليك أن تذهب إلى الأرض فتفقدوها، وتعود سريعاً؟"، وفي الأسلوب المنزاح عنه خصائص ليست في الأسلوب المنزاح إليه، وهي كما يلي:

- جاء الاستفهام التقريري مباشراً ب "ألم أكن".

- دخل الاستفهام على الكون المنفي المتصل بالاسم الموصول "ألم أكن عهدي إليك ما عهدي" تغليظاً للتقرير.

- في قوله: "ما عهدي" إجمال دون تفصيل، وإخفاء دون توضيح.

- في تكرار "عهدي.. ما عهدي" تأكيد على العهدة بغير لفظها، إذ تقدم ذكرها بإيجاز شديد أيضاً: "فاذهب فاطلعتها، وأمرني فيها ببعض ما يريد" وفي التكرار أيضاً تذكير بايقاع التردد.

أما الأسلوب المنزاح إليه، فالعبارة فيه ذات إشكالية في بنائها، على أساس أن (الواو) للعطف على معطوف منوي من جنس المعطوف (١٨)، وأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله، فضلاً عن الحشو الذي جاء جملة تعليلية تفسيرية في قوله: "فتفقدوها وتعود سريعاً" وهي بعد ذلك تكرار لما سبق أن ذكره السارد بضمير الغائب "فأرسله ذات يوم إلى أرض له يتفقدوها.. وأوصاه ألا يغيب طويلاً، ويسرع بالعودة بعد أن يتفقد الأرض وزراعتها" (١٩).

وضمن السارد خطاب الشخصية المباشر جملة معترضة فيها النداء والاضراب في قوله: "كلا والله يا



- فالحق به ان استطعت وبلغه سلامي (في الأصل: فالحق به).

- من خلال تشويه سمعة رجاله (في الأصل: وما علمك بذلك).

- ومضى سلمان إلى الكنيسة، وقدم نفسه لمن فيها من الرهبان.

- ولا يفيد معه الحوار.

- وهاهو الخطر يصيب ولده في أعز شئ عليه.

- فما دام عاد فإنه لم يصبه شر، وإنما هو عبث الشباب.

ولم يقتصر الخطاب غير المباشر على التداخل بين صوت سلمان الفارسي وصوت الراوي (خطاب الشخصية وخطاب الراوي) والتحويل البسيط في تركيب بعض الجمل بالاضافة والتخصيص، بل انعطف إلى تيار الوعي بالتساؤل والتعجب والتنبيه، فقد امتزج الاستفهام المعبر عن حياة سلمان في ارتحاله بين البلدان بالتنبيه الذي يأتي تنفيساً بامتداد بنيته الصوتية عن عمق الاضطراب النفسي، إذ يقول السارد:

"أين المستقر يا سلمان؟

ها أنت تحمل متاعك وترحل من أرض إلى أرض، ومن راهب إلى آخر، فماذا إذا انقطع هؤلاء الرجال ولم

يبقى من تأوي إليه؟

- وهل يترك الله سبحانه الناس بلا نور ولا هدى؟!

- لقد تقلص النور، وأوى إلى هذه الصوامع المتناثرة هنا وهناك في البلاد.. وها هي قناديلها تنطفئ واحداً واحداً".

وعلى الرغم من أن أسلوب التنبيه بالهاء (ها) يأتي ضمير الرفع المخبر عنه غير اسم الإشارة قليلاً في الاستعمال، ويأتي ضمير الرفع المخبر عنه باسم الإشارة (ها أنذا، ها أنتم أولاء) كثيراً في التداول العربي، جاء استعمال السارد لذلك في خطابه مقلوباً،

أبت، بل إنه لخير من ديننا" التي هي في الأصل: "كلا والله إنه لخير من ديننا".

ويفضي الخطاب غير المباشر بالجملة المعترضة إلى جوانب دلالية ذات تعلق بالباط (سلمان) والمتلقي (والده)، فالتنبيه الذي حمله النداء (يا أبت) جاء مخففاً لوقع الزجر والردع والنفي في (كلام الذي ابتدئ به الجواب، وجاء شديداً بايقاعيته ذات النبر الضاغط على حرف اللام، الذي أكد النفي وأوضحه بالمذ ليكون واضحاً في سمع المتلقي في تقوية الرفض، وجاء الاضراب بـ(بل) لتأكيد النفي الذي حملته (كلا) وتقريره بالاثبات (إنه لخير من ديننا)، وبذلك جاءت الجملة المعترضة معززة الوظيفة الاقتناعية، التي حملها تعبير سلمان بالزجر والقسم.

وكان انشغال السارد بتبسيط الحوار ولغته (الخطاب) في التعبير عن واقعية سلمان سبباً في الانحراف إلى مستوى التداولية الإبلاغية الفصيحة في مثل قوله:

- قوموا معي لأدلكم إلى كنزه (وهي في الأصل التاريخي أنا أدلكم على كنزه).



- فصار القليل في الاستعمال كثيراً، منزاحاً بذلك إلى وظيفة الخطاب السردية في تقصير الجملة بالحذف الموضوعي لاسم الإشارة ليكون التنبيه سريعاً مباشراً على الخبر دون فواصل لغوية.
- على أن في استعمال حرف الهاء مردياً مكرراً في التنبيه باتباعه بضمير الفصل (هو / هي) ما يمنع التنبيه بعداً صوتياً همسياً مزدوجاً، يتناسب وحالة سلمان ذات العمق النفسي في التصبر والترقب، التي جاء احتواؤها في مثل قول السارد:
- ها هي العتمة تنقش ظلماتها.
 - ها هي المعلومات كلها قد اكتملت.
 - وها هو النبي المنتظر قد ظهر.
- بهذا التكرار للاستفهام والتعجب والتنبيه حقق السارد لرحلة سلمان لونا من الاتساق البنيوي في القص، عززه بمعجم جرى في مداره حول مرتكز لغوي هو "الحق" الذي جرى تداوله صريحاً تارة ومجازاً تارة أخرى في مستويي الخطاب المباشر وغير المباشر، فمما جاء صريحاً في الخطاب:
- إنه يطلب الحق الذي وقع في قلبه، إنه يريد الله".
 - هل يسكت سلمان، لقد هجر أهله ودياره طلباً للحق...".
- "وأدرك هذا الراهب الموت، وما يزال الشوق إلى الحقيقة ينمو في قلب سلمان، وها يفقد أهل الخير والحق واحداً واحداً".
- وجاء دال "الحق" في معارض مجازية من الكناية والاستعارة في الخطاب غير المباشر الذي حمل تعبيراً عن داخل الشخصية (سلمان)، فصار الحق نوراً وقنديلاً وشمساً وفجراً ينبج من العتمة مشرقاً سافراً.. وذلك في مثل قوله:
- "وابتدأت رحلة سلمان الباحث عن الهداية والنور".
 - "لقد تقلص النور، وأوى إلى هذه الصوامع المتناثرة هنا وهناك في البلاد، وهاهي قناديلها تنطفئ واحداً واحداً ولا بد من شمس هدى تشرق، يعم نورها الكون كله، فلا يخفى على طالب الحق مكانه، وهل يدرك الفجر إلا على مركب من عتمة الليل".
 - "هاهي الحجب تشقق عن فجر أرجو أن يكون صادقاً.."
 - "واستجمع سلمان سنوات عمره كلها في هذه اللحظة التي انبج له فيها وجه الحق سافراً، فأكب على رسول الله ﷺ يقبله ويبكي" ■

الهوامش:

- (*) نشرت ضمن المجموعة القصصية التي بعنوان: صور ومواقف من حياة الصالحين، تأليف: د. مأمون فريز جرار، ج ٥، دار البشير، عمان، الأردن
- (١) انظر ابن الجوزي، صفة الصفوة، ج ١ ص ١٩٨-٢٠٠.
- (٢) انظر صور ومواقف، ج ٤ ص ٤٢-٦٩.
- (٣) بناء الأقصوصية والرواية ص ١٩٢ بالفرنسية، نقلاً عن الخبر في الأدب العربي ص ٣٦٦.
- (٤) (صور ومواقف ج ٤ ص ٤٨).
- (٥) صور ومواقف ج ٤ ص ٥٩.
- (٦) الحميداني، د. حميد، بنية النص السرد، ص ٨٠.
- (٧) د. لطيف زيتوني، معجم مصطلحات نقد الرواية، ص ١٧١-١٧٢.
- (٨) لحميداني، د. محمد، بنية النص السرد، ص ٧١.
- (٩) زيتوني، لطيف، معجم مصطلحات نقد الرواية، ص ٧٢.
- (١٠) سيزاقاسم، بناء الرواية ص ٤٥.
- (١١) جيرالد برنس، قاموس السرديات، ص ٦٢.
- (١٢) ابن الجوزي، صفة الصفوة، ج ١ ص ١٩٦-١٩٧.
- (١٣) المصدر السابق ج ١ ص ١٩٦-١٩٧.
- (١٤) الماضي، د. شكري، أنماط الرواية العربية الجديدة، ص ٦١.
- (١٥) ابن الجوزي، صفة الصفوة، ج ١ ص ١٩٧.
- (١٦) صور ومواقف ج ٤ ص ٤٥-٤٦.
- (١٧) ابن منظور، لسان العرب، مادة نوس، ج ٨ ص ١٣١.
- (١٨) الزمخشري، الكشاف، ج ٤ ص ٥١٦.
- (١٩) صور ومواقف، ج ٤ ص ٤٤.